مقدمة

****

الحمد لله الذى خلق الإنسان وعلمه البيان ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله الأطهار الطيبين وأصحابه ومن تبع دينه وسنته واهتدى بهدية إلى يوم الدين .

وبعـــد

بداية لا يسعنى إلا أن أستعير ما قاله " العماد الإصفهانى " بشأن التأليف والكتابة فقال " إنّى رأَيْتُ أنّهُ لا يكتُبُ إنسانٌ كتاباً فى يَوْمِهِ إلّا قَالَ فِي غَدِهِ : لوْ غُيّرَ هذَا لَكَانَ أحْسَن ، ولوْ زِيدَ كَذَا لكان يُستحسنُ ، ولوْ قُدّم هَذَا لكَانَ أفْضَلَ ، ولو تُرِكَ هَذَا لكَانَ أجْمَلَ ، وَهَذَا مِن أعْظمِ العِبَرِ ، وَهُوَ دليلٌ عَلىَ استِيلاءِ النّقْصِ على جُمْلَةِ البَشَرِ ".

كان اهتمام المؤرخين حتى وقت قريب منصباً على دراسة الحياة السياسية للدول دون توجيه الاهتمام إلى جوانب الحياة الحضارية خاصة الاقتصادية منها والتى ترتبط بأمر الصناع والحرفيين ، وما يقومون به من صناعات مختلفة ، تعد الأساس الذى تقوم عليه الحياة الاقتصادية لأية دولة ، غير أن الاتجاهات الحديثة أخذت توجه عنايتها إلى حد كبير لدراسة النواحى الحضارية لما لها من صلة وثيقة بتفسير كثير من الأحداث السياسية والاجتماعية .

وبالرغم من ذلك فإن تاريخ الأندلس الاقتصادى والحضارى يفتقر إلى حد كبير لتلك الدراسات الحديثة التى تتناول أمر الصناعات والحرف ، الأمر الذى دفعنا إلى دراسة (الحرف والصناعات فى الأندلس فى عهد بنى أمية ١٣٨هـ – ٤٢٢هـ / ٧٥٦ – ١٠٣١م). ولعل أهمية موضوع البحث تكمن فى أنه يشغل فترة زمنية طويلة تربو على أربعة قرون ، ويتضمن جزءاً كبيراً من التاريخ الحضارى للأندلس الإسلامية ، وهو بلا شك يميط اللثام عن نواح مهمة فى حضارة الأندلس ، وما قدمته للحضارة الإنسانية بوجه عام والحضارة الإسلامية بوجه خاص فى مجال الحرف والصناعات .

كانت الأندلس قبل قيام الدولة الأموية بها على يد الأمير " عبد الرحمن بن معاوية " المعروف بالداخل ١٣٨هـ / ٧٥٦م ، تخضع لحكم الولاة الذين يتولون أمرها من المشرق الإسلامى ، ثم استقلت تماما عن المشرق وأخذت فى منافسة الخلافة العباسية ،والفاطمية ، والوقوف بقوة فى وجه الممالك المسيحية المتاخمة لحدودها الشمالية ، وقد شهدت الأندلس فى ظل الحكم الأموى المستقل ، نشاطا اقتصاديا متناميا وملحوظا فى غضون فترة البحث ، وإن كان ذلك النشاط يعد امتدادا لما كان من قبل فى عصر القوط والولاة ، إلا أنه سرعان ما أخذ طابعا متميزا بعد قيام الداخل بإعلان نفسه أميرا على البلاد ١٣٨هـ عقب انتصاره فى موقعة
المسارة على والى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن ، وقضاءه النهائى عليه ١٤١هـ .

ويتضح لنا من خلال البحث أن الحياة الاقتصادية ممثلة فى أهل الصناعات والحرف داخل الأسواق تبدوا دائماً المحرك لكثير من الاتجاهات السياسية والتطورات الاجتماعية ، الأمر الذى يدفعنا إلى معرفة كثير من الاتجاهات من تفاصيل التنظيم الاقتصادى والاجتماعى

للأندلس مدنها وقراها.

ويجب أن نأخذ فى الاعتبار التطور البطئ للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية إلى درجة كبيرة عكس الأوضاع السياسية التى تتميز بسرعة التغير ، بمعنى أن مجئ أسرة حاكمة جديدة لا يمكن أن يقلب الأوضاع الاقتصادية فى بلد ما رأسا على عقب بين ليلة وضحاها ، لكنه يتطور بها تطورا بطيئا منتظما ، لأن حالات الشعوب ونظمها الاقتصادية والاجتماعية تتطور خلال فترات زمنية طويلة عكس الأحداث السياسية التى تأخذ سمة التغير السريع .

ولعل تلك العوامل التى أشرنا إليها هى التى دفعتنا إلى اختيار موضوع الحرف والصناعات بالأندلس خلال العصر الأموى ، لأن دراسة مثل تلك الموضوعات وتطورها ، وما يتعلق بها من نظم سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، تحتاج فى الواقع إلى أزمنة طويلة لبيان مظاهر التطور بها ، وقياس تأثيراتها على الدولة بشكل عام .

ولما كانت القرون الأربعة الهجرية الأولى تمثل مراحل النشأة والتطور ومن ثم الازدهار فى تاريخ الحضارة الإسلامية بوجه عام والأموية بالأندلس بوجه خاص ، فقد تبلورت كثيراً من الصناعات والفنون ونمت الأسواق بها نموا عظيما وبلغت غايتها فى المرحلة الثانية من مراحل الدولة الأموية الذى يمثله عصر الخلافة منذ عام ٣١٦هـ فى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر وحتى وقوع الفتنة الكبرى وبداية الانهيار السريع للأندلس وتفككها إلى دويلات مستقلة أو ما يسمى عصر الطوائف ٤٢٢هـ / ١٠٣١م .

كانت الدولة الأموية بالأندلس أول دولة مستقلة بها بمعنى الكلمة فقد أقامت لنفسها نظما ، وتقاليدا عريقة ، ووضعت لنفسها أهدافا خاصة سعت إلى تحقيقها ، فوقفت على قدم المساواة مع أكبر الدول القائمة فى ذلك الوقت فى الشرق والغرب على السواء ، ورغم ما كان هناك من تطور تدريجى وتقدم بطيئى فى تحقيق تلك الأهداف ، إلا أن الهدف الأساسى للأمويين الذى سعوا إلى تحقيقه ونجحوا فيه هو الوقوف بقوة منذ البداية أمام مطامع الخلافة العباسية ، والفاطمية ، والدول والممالك المسيحية ، كما كان الأمويون يسعون أيضا ليس فقط لإثبات أنفسهم سياسيا وعسكريا بل إلى محاولة إظهار التفوق الحضارى وإبداء مظاهر التقدم المادى والقوة والبذخ والترف الذى كانت تعيشه الأندلس فى ظل الأمويون وكانت تتناقله ألسن الزائرين
لها من الجغرافيين والمؤرخين.

لذا كان من الطبيعى أن يقوم الأمويون منذ البداية بمحاولات جادة من جانبهم إلى الاستغلال الأمثل للموارد الطبيعية الضخمة التى تمتلكها الأندلس كى تكون قوة وأداة فعالة ، تعينهم على تحقيق غاياتهم وطموحاتهم ، وإدراك مآربهم وسياستهم ، ومن هنا بدأت عنايتهم بالصناعة والاهتمام بالحرفيين والصناع وإقامة الأسواق باعتبارها أحد عناصر الثروة الوطنية . هذا إلى جانب وفرة الأيدى العاملة ، وحسن معاملة الصناع والحرفيين وتشجيعهم على القدوم للأندلس ، وجذب العلماء ، وعدم التفرقة بين الصناع والحرفيين من ناحية الجنس أو الدين أو اللغة وغير ذلك من الأمور ، فقد فتح الأمويون أبواب الأندلس على مصراعيها لجميع الحرفيين والصناع من جميع البلدان فى وقت مبكر من عمر الدولة ، الأمر الذى دفع آلاف الصناع والحرفيين إلى هجرة

أوطانهم والاستيطان بالأندلس بأسرهم والعمل داخل حوانيت خاصة بهم ، أو فى المصانع الحكومية التى تمتلكها الدولة منذ عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط .

ومما سبق يتضح لنا ، أن التغير السياسى الذى شهدته الأندلس خلال العصر الأموى صحبته تغيرات حضارية عظيمة سريعة ، أدت إلى إحداث نقلة جديدة تختلف تماما عما سبقها داخل المجتمع الأندلسى ، هذه النقلة تطلبت حياتها اليومية الكثير من الصناعات والسلع ، التى باتت تمثل ضرورة هامة لهذا اللون من الحياة ، وكان لها فى نفس الوقت الأثر الكبير فى ازدهار الإنتاج الصناعى وتطوره ، وكثرته ، وتنوعه ، مما انعكس بالإيجاب على الأسواق والحرفيين والصناع بها فى الصناعات المختلفة

وقد توخيت فى دراستى إبداء النقد فى عرض عناصر البحث ، كما حاولت أن ألتزم المنهج العلمى القائم على مقارنة النصوص واستخلاص النتائج ، واستبعاد ما هو مبالغ فيه من الروايات التى كثيرا ما وردت فى كتب المؤرخين والجغرافيين فى العصور الوسطى .

وقد قسمت هذا البحث إلى أربعة فصول ، مهدت له بمقدمة تناولت فيها الهدف من البحث ، والأسباب التى دفعتنى لاختياره ، أما التمهيد فقد تناول بشكل موجز الأحوال السياسية للدولة الأموية كمدخل لدراسة الحرف والصناعات ، ثم خاتمة ضمنتها أهم النتائج التى أمكن التوصل إليها من خلال تلك الدراسة ،وتناولت الدراسة فى

الفصل الأول : عوامل قيام الصناعة بالأندلس ، فأشرت فى البداية إلى تعريف الصناعة ، وتقسيمها إلى ضرورية وكمالية ، بسيطة ومعقدة ، وكيفية استغلال الأمويين لموارادهم واستخراجها من باطن الأرض ، ثم تناولت أهم العوامل الطبيعية لقيام الصناعة بالأندلس ، من أهمها وفرة المواد الخام الأولية المعدنية ، فتعرضت لذكر المعادن المهمة مثل الذهب والفضة ، والحديد ، والنحاس ، والقصدير ، والرصاص ، والزئبق والزنجفر ، والكحل والتوتيا ، والزاج ، والشب ، والمغرة ، والطفل ، والقار ، والملح ، والرخام والأحجار ، إلى جانب الأحجار الكريمة ، والعنبر ، موضحا أهم المدن والمناطق التى تشتهر بها ، كما تناولت وفرة المواد الخام الزراعية والحيوانية أيضا وأهميتها فى قيام الصناعة ، اللازمة للصناعة المعدنية ، والزراعية ، والحيوانية .

وأشرت أيضا إلى العوامل الأخرى البشرية مثل وفرة الأيدى العاملة ، ونظرة المجتمع الأندلسى للعمل ، والأمن والاستقرار السياسى ، وأثر ذلك فى ازدهار البلاد وتفرغ الأمراء والحكام للبناء والتعمير والتشييد ، واحتياجات الجيش والأسطول من أسلحة ، وعتاد ، وسفن ، ثم حياة الرفاهية السائدة آنذاك وما تطلبه ذلك من إلقاء العبء على الحرفيين والصناع ليس فقط فى زيادة الإنتاج بل فى تحسينه وتطويره ، وإنتاج أنواع أخرى من المنتجات تواكب حياة الرفاهية والبذخ التى كان يعيشها الأندلسيون فى تلك الفترة ، ثم السياسة الضريبية التى اتبعها الأمويون والتى تمثلت فى عملية تخفيف الضرائب وإلغائها فى بعض السنوات خاصة عند تولى الحكام والتى كان لها أكبر الأثر فى نمو وازدهار الصناعات المختلفة بما يعمل على التخفيف عن كاهل الصناع وتخفيض مدخلات الإنتاج بما يؤدى فى النهاية إلى التوسع فى الصناعات ،
وبيعها بسعر مناسب يلائم الجميع .

كما أشرت أيضا إلى النشاط العلمى وجهود العلماء فى سبيل تطوير الصناعات المختلفة والعمل على تقدمها ، وتشجيع الأمويين للصناع دون النظر إلى جنسية أو ديانة الصانع والحرفى ، على الهجرة إلى الأندلس واستيطانها ، والنشاط التجارى وأثره المحمود فى ازدهار الصناعات عن طريق تصريف المنتجات الصناعية فى الداخل والخارج ، ومحاولة سد احتياجات الصناعة الأندلسية بجلب المواد الخام التى كانت تحتاجها الصناعة الأندلسية إما لعدم وجودها أو لقلتها .وأشرت أيضا فى النهاية إلى أهم المعوقات التى كانت تقف فى سبيل تطور وتقدم الصناعة .

وفى الفصل الثانى : تناولت بالدراسة أهم الصناعات التى ازدهرت فى الأندلس فى عهد الدولة الأموية ، وقسمتها إلى **أولا : الصناعات القائمة على الإنتاج الزراعى والحيوانى** ، والتى كان من أهمها صناعة الغزل والنسيج ، والأبسطة والسجاد ، والسفن وأهم دور الصناعة وأنواع السفن المختلفة ودورها فى حماية أمن وسلامة الأندلس والدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية ، وصناعة الزيوت والأدهان ، والنبيذ ، والورق ، والروائح والعطور ، وتجفيف الفاكهة ، والسكر والخل ، والخبز ، والألبان ، والصناعات الجلدية ، وصناعة الطب والأدوية .

ثانيا : الصناعات القائمة على التعدين ، مثل الصناعات الحديدية ، والنحاسية ، والبرونزية ، والفضية ، والذهبية ، والأسلحة ، وصناعة الفخار والخزف ، والبللور والزجاج ، والصناعات العاجية ، وفن العمارة وصناعة البناء ، وغيرها من الصناعات الأخرى ، موضحا فى جميع هذه الصناعات أهم مراكز كل صناعة ، وفضل المسلمين فى قيامها ، ودور الصناع والحرفيين فى تقدمها وازدهارها .

وفى الفصل الثالث : تناولت الدراسة أهم الحرف التى اشتهرت بها الأندلس وهى كثيرة لا يحصرها عد ، ولكن اكتفيت بالإشارة إلى أهمها وأكثرها إنتشارا منها حرفة طحن الغلال ، وأنواع المطاحن التى كان بعضها يدار بقوة الحيوان أو الإنسان ، وبعضها يدار بقوة الماء ، والبعض الآخر وهو أقلها يدار بالهواء ، وتناولت حرفة الدباغة ، والصباغة وصناعة الألوان ، والنجارة ، والنحالة وإنتاج العسل ، وفن الحفر والنقش على الأحجار والرخام ، هذا إلى جانب ما ذكرته من حرف تتصل بالأطعمة والأغذية الطباخين ، والحرف التى تتصل بالبناء مثل البنائين ، والطوابين ، والجيارين ، والدهانين ، وأشرت كذلك إلى حرفة عمل الحصير والحبال والسلال من النباتات والحشائش ، كما ألمحت إلى حرفة صيد الأسماك وتصنيعها التى انتشرت بكثرة فى جميع أنحاء الأندلس ، بسبب طول سواحلها البحرية وكثرة أنهارها التى قيل أن عددها يبلغ ٤٠ نهرا ، وأهم أنواع الأسماك ، كما أشرت إلى حرفة صيد الطيور والحيوانات البرية والتى كان يشترك فيها الأمراء والحكام كنوع من الرياضة والتسلية ، ثم تناولت بعض الحرف الأخرى الهامة التى انتشرت بين الأندلسيين مثل الحاكة والخياطين ، والحدادين ، والحرف البسيطة الأخرى ، وفى جميع هذه الحرف تناولت أهم الشروط الواجب توافرها فى من يحترف هذه الحرفة ، ودور المحتسب فى الإشراف عليها .

وفى الفصل الرابع : تناول البحث دور الدولة فى الرقابة على الحرف والصناعات داخل

السوق ، عن طريق نظام الحسبة ، ودور المحتسب فى الرقابة على الحرفيين والصناع ، معرفا أهمية منصب المحتسب ، وشروط توليته ، وواجباته وأهم أعماله المتعلقة بالصناع والحرفيين ، وأنواع العقاب التى كان يوقعها على المخالفين داخل السوق ، واستعانته بالأعوان والمساعدين ، والأمناء أو العرفاء فى كل صنعة ، ثم ذكرت أسماء بعض من ولى أمر السوق فى عهد حكام بنى أمية ، وما كانوا يتصفون به ، ثم تناولت أيضا دار العيار التى كانت تقوم بصناعة المكاييل ، والموازين ، والأرطال ، والمثاقيل ، التى كانت تستخدم داخل الأسواق الأندلسية فترة الحكم الأموى لها ، ودور المحتسب فى الإشراف عليها .

ثم تناولت طوائف الحرف والصناعات مشيرا إلى تطورها بالأندلس ، والأوضاع الاجتماعية لأصحاب الحرف والصناعات ، ونظرة المجتمع لهم ، والموارد المالية ، وأخيرا ، وألمحت كذلك إلى بعض النظم المتعلقة بالصناعة ، والصناعات الأهلية والحكومية ، ودور الدولة فى رقابة أسعار الصناعات والمنتجات ، ودور الطراز وأهميتها ، وأهم المدن التى أقيمت بها ، وأخيرا تناولت دار ضرب النقود والسكة معرفا معناها ، وأول من أقام دار ضرب النقود بالأندلس من بنى أمية ، وأهم المدن التى وجدت بها دور الضرب ، وأنواع النقود ، وأهم سمات موظفى دار الضرب ووظيفة كل منهم ، اختتمت الرسالة بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التى أمكن التوصل إليها من خلال تلك الدراسة ، وبعض الملاحق والخرائط ، والأشكال وقائمة بالمصادر والمراجع .

ولا يسعنى بهذه المناسبة إلا أن أتقدم بخالص الشكر والامتنان والتقدير إلى أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور عفيفى محمود إبراهيم أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية ، ووكيل كلية الآداب لشئون التعليم والطلاب – سابقا بكلية الآداب جامعة بنها ، الذى تولى الإشراف على تلك الدراسة ، ولما أولانى به من رعاية وتوجيه وتشجيع طوال مدة اشتغالى بجمع المادة العلمية للبحث ، ولإشرافه العلمى الدقيق أثناء كتابتى لفصول الرسالة ، ولتذليله كافة الصعوبات التى واجهتنى سواء بإمدادى بالمصادر والمراجع ، أو بتسهيل الحصول عليها ، مما ممكنى من جمع المادة العلمية ، فجزاه الله عنى كل خير ، كما لا يفوتنى أن أتوجه بخالص شكرى وتقديرى إلى أساتذتى الفضلاء الذين تقبلوا بصدر رحب مسئولية مناقشة الرسالة ،وهم أ.د / سعيد سيد أحمد أبو زيد ، أستاذ الحضارة والتاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة المنوفية ، وأ.د / عبلة محمد سلطان أستاذ الإرشاد السياحى المساعد بكلية السياحة والفنادق جامعة السادس من أكتوبر . كما أتوجه بالشكر والعرفان لأستاذى أ.د / محمد محمود إدريس – رحمه الله – الذى شرفت بإشرافه على رسالة الماجستير الخاصة بى ، وأخيرا الشكر والتقدير والامتنان لكل من ساعدنى على إتمام هذه الرسالة ، لكم جميعا خالص الشكر والتقدير ، والله أسأل التوفيق والسداد .

وما توفيقى إلا بالله ،،،